أثر البعد الروحي في فتح مدينة وهران سنة 1792 م

الاستاذ بن العيفاوي علي
جامعة عبد الحميد بن باديس
مستغانم

اشتهر باي معسكر عاصمة بايلك الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير بجديته وصرامته وحبه للعلم والعلماء ، وقد ذاع صيته حتى بين الكتاب والمؤرخين والرحالة الأوربيين في بعده الروحي والإنساني وورعه وتقواه وعقيدته وأخلاقه الحميدة ، حيث شهدوا له بحسن معاملة العبيد الأوربيين الذين كانوا يمارسون بقصره مختلف الأعمال ، حيث ذكره عالم النبات دي فونتان Désfontains بانه كان كريما معهم ويزودهم بما يحتاجونه من أغذية و قد جعل لهم راتبا مقابل ما يؤدونه من أعمال لديه ، ويعاملهم برأفة تنم على ورع وتقوى كبيرين لدى هذا الباي ، إضافة إلى تواضعه الكبير مما جعله يتمتع بشعبية كبيرة بين سكان مدينة معسكر .

والواقع ان الباي محمد بن عثمان كان يتميزبشخصية قوية وصرامة كبيرة ، متمرسا وخبيرا بالحروب وابدى شجاعة كبيرة اثبتها من خلال قيادته للجيش عند ما قام الاسبان بحملتهم العسكرية على مدينة الجزائر سنة 1775 بقيادة اوريلي (Oreilly) الارلندي،حيث ذكره العقيد استرهازي بانه كان وراء انتصار الجيش الجزائري على الاسبان من خلال حنكته العسكرية على ارض المعركة وكان على راس جبش الخيالة الذي كان له شرف هذا النصرالكبير ، على الرغم من من امتعاض داي الجزائر من هذا الانتصار ،لان ذلك سيساهم في تزايد شعبية الباي محمد بن عثمان بين السكان مما يجعله يطمع و يسعى للوصول الى منصب الداي باعتباره خليفته في الحكم .

وقد تجلى عدم رضى الداي على هذا النصر انه لم يجزل العطاء لجيش الخيالة ،مما أجبر عدد كبير منهم على الفرار الى تونس ، لكن الباي محمد بن عثمان سارع اليهم واجزل لهم العطاء على شكل مكافاءت مالية جعلتهم يعودون معه الى الجزائر .

وعلى الرغم من انشغالاته العديدة ،الا ان ذلك لم يثنيه على ابداء عناية خاصة و اهتمام كبير وجلي بالعلم والعلماء من خلال بناء المدارس والمعاهد والزوايا و تكريم العلماء وحفظة القران الكريم والمدرسين بالمعاهد التي اسسها بنفسه بمدينة معسكر.....الخ ، ونظرا لمكانة هؤلاء العلماء و رجالات الزوايا لدى عامة السكان وتأثيرهم في اتخاذ القرارات كان لزاما على الباي محمد بن عثمان الكبير أن يدرج شيوخ الزوايا والعلماء ضمن خطته وجيوشه العسكرية لفتح مدينة وهران متبركا بشهر رمضان الكريم ومتيمنا بالفتوحات الاسلامية للنبي عليه الصلاة والسلام في هذا الشهر الكريم حيث كانت معركة بدر في 17 رمضان س 2هـ و فتح مكة في 20رمضان س 8هـ . وقد تقرب الباي محمد بن عثمان الكبير من المرابطين الذين كان يقدر عددهم بأكثر من خمسمائة شخص، حيث أغدق وتكرم عليهم بأموال طائلة مما جعلهم يعدوه بالمؤازرة والنصرة والتأييد .

وكان خروج الباي من مدينة معسكر في الثالث من رمضان سنة 1206 للهجرة مارا بمدينة سيق التي مكث فيها عدة أيام ثم مدينة تليلات التي تبعد عن وهران مسيرة ضحوة مع العلم أن الباي كان قد أقام وليمة حضرها عدد كبير من الخواص والعوام وأرسل إلى المناطق البعيدة فأوتي بجميع أعلام أوليائها الصالحيين كعلم سيدي عبد الرحمان الثعالبي ، وأبي مدين شعيب التلمساني ، وأحمد بن يوسف الملياني ، ومحمد بن عودة ليحضر بها الجهاد تبركا بهم

وقد أثر هذا الموقف في أهالي مدينة معسكر وضواحيها الذين هبوا بعفوية كبيرة لمساعدة الباي في حربه ضد الاسبان المحتلين لمدينة وهران .

وبدأت المواجهات في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة 1206للهجرة واشتد القتال بين جيوش الباي محمد بن عثمان الكبير والجيوش الاسبانية حيث بدأت حصون وأبراج وقلاع وهران تتهاوى وتسقط الواحدة تلوى الأخرى مثل حصن مرجاجو المنيع وبرج العيون واستمر القتال لفترة طويلة من النهار، وكان الباي حريصا على تنظيم صفوف الجيوش بتشكيل ثلاثة أرتال، من اجل إحراز تقدم اكبر كي يتفادى مواجهة الجيش الاسباني ليلا ،وكانت الحصيلة الأولية أكثر من 229 جندي اسباني سقطوا قتلى في ساحة المعركة وبدأ الجنود الأسبان في الفرار وكان عددهم 1526رجلا ، موزعين على عدة مراكز وسارع الأسبان الى طلب المدد من اسبانيا التي أمدتهم ب7000جندي ، بينما لم يستجيب داي الجزائر في تقديم المدد والعون إلى الباي محمد بن عثمان ،خوفا من طموحاته الكبيرة وحصوله على شهرة واسعة بين السكان ،خاصة اذا كان الأمر يتعلق بمدينة كبيرة وهامة مثل وهران يسعى الأوجاق إلى الاستيلاء عليها و إحكام سيطرتهم ، فسارع الباي إلى نقل مدافعه إلى البرج الاحمر لتضييق الخناق عليهم مما حدا بالاسبان إلى طلب الهدنة التي رفضها الباي عدة مرات، فالأسبان لم يكن باستطاعتهم رد هجوم باي معسكر نظرا للحالة السيئة والأوضاع المتدهورة التي كانوا عليها ،حيث عانوا من نقص حاد في المؤونة لجنودهم من جهة ، ومعنويات جيشهم كانت منحطة ، بسبب طول مدة الحصار من جهة أخرى ، إضافة إلى ارتفاع تكاليف هذه الحرب على خزينة اسبانيا .

لكن تدخل داي الجزائر حسن باشا أدى بالباي محمد بن عثمان الكبير إلى الموافقة على الهدنة مع الإسبان على مضض ثم الانسحاب من المدينة حيث كان برغب في إلحاق الهزيمة بالاسبان لكي لا يفكروا في الاعتداء مرة أخرى .

وقد ساهمت تكبيرات وتهليلات شيوخ الزوايا والمرابطين في تحفيز جيوش الباي في مواصلة الجهاد وتشجيعم على طلب الاستشهاد أو النصر وأمام هذا الوضع رضخ الاسبان إلى الصلح مع الباي محمد بن عثمان وفق شروطه وتوقيع اتفاقية الانسحاب من اجل حفظ ماء الوجه لا غير ، وذلك بحضور حسن باشا داي الجزائر في مطلع شهر محرم 1207 للهجرة والتي تضمنت عدة بنود أبرزها :

1. إنسحاب الاسبان من مدينة وهران والمناطق الخاضعة لهم ومن جميع الحصون والقلاع دون شروط

2. ترك الاسبان كل الاشياء التي كانت موجودة في المدينة خلال حكم الباي مصطفي بوشلاغم وأن لا يحدثوا عليها أي تغيير ، كما عليهم إرجاع جميع القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمها الاسبان عند احتلالهم لمدينة وهران والمرسى الكبير
3. يدفع الاسبان لدار السلطان كل سنة مبلغ اثنى عشر ألف سلطاني [120ألف فرنك].
4. يدفع الاسبان 55 ريال لبيت المال 40منها عن كل سفينة إسبانية ترسو بميناء وهران والباقي لقائد المرسى.
5. لا يسمح لبقية الدول الاروبية بممارسة التجارة بمدينة وهران دون إذن مسبق من باي وهران محمد بن عثمان الكبير .
6. تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى إسطنبول مفتاحيين ذهبيين رمزاستسلام وهران والمرسى الكبير مع جرتيين من ماء عيون وهران للخليفة السلطان العثماني كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الجزائر .
7. للأسبان الحق في تدمير وتحطيم كل البناءات التي كانت سنة 1732.
8. يسمح للأسبان الراغبين في مغادرة مدينة وهران بالرحيل الى مدينة قرطاجنة .
9. حصول اسبانيا على مركز تجاري في بلدة جامع الغزوات .
10. أن تشتري اسبانيا من بلاد الجزائر 3000 كيلة من القمح سنويا .

والواقع أن المؤرخ ليون فاي أضاف بعض البنود السرية التي لم ترد في الاتفاقية منها :

1- لا يحق لباي وهران تحديد كمية القمح المصدرة الى اسبانيا .

2- لا يحق رفع سعر القمح عن الأسعار المحلية الموجودة في وهران .

3- كل مركب اسباني يدخل الى ميناء وهران يدفع 55 ريالا منها 40 ريلا لبيت المال و15 ريالا الى قائد المرسى .

وقد ذكر المؤرخ هنري قارو أن الأسبان اتفقوا مع باي وهران على الانسحاب مقابل حصولهم على امتيازات اقتصادية في بايلك الغرب ،مثلما كان عليه حال فرنسا في الشرق الجزائري ، وتم الاتفاق على ذلك في وقت سابق بتاريخ 14جوان 1786،وكان قنصل فرنسا السيد دو كارسي وسيطا بين الطرفين .

وبعد أن استقر الباي بن عثمان الكبير بمدينة وهران شيد مسجدا على الواجهة البحرية سنة 1792 م من ماله الخاص لا زال إلى اليوم يحمل اسمه واستعاد ت المدينة أمنها واستقرارها مما جعل الحياة الاقتصادية والحركة التجارية تزدهر بها مع العلم أن الباي محمد بن عثمان الكبير قد شجع أصحاب الحرف والمهن من الاسبان وغيرهم على المكوث بالمدينة وممارسة أعمالهم بكل حرية مع إعلان عفو شامل عنهم و تقديم تحفيزات لهم من اجل إعادة اعمار المدينة بعد الدمار الذي شهدته اثناء المواجهة العسكرية بين الطرفين الجزائري والاسباني ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبحت وهران مدينة غنية زاهرة ، ومنحه الداي حسان لقب الكبير اعترافا له بفضله وصدق جهاده .

وذكرت بعض المصادر ان الداي حسان داي الجزائر ، استقبل الباي محمد بن عثمان وقلده الريشة الذهبية وقال له :"أوكلك هذه المدينة الثمينة ،وذلك لما أظهرته من شجاعة ونصرة للإسلام ، واني فد عبنت ابنك عثمان خليفة لك على بايلك الغرب وابنك محمد قائدا على مدينة فليتة ".

وعند عودة الباي محمد بن عثمان الكبير من مدينة الجزائر ، تم دس السم له من طرف الداي حسان في منطقة عين الربط ،نظرا لتخوفه من شجاعته وشهرته بعد انتصاره على الاسبان بمدينة وهران .

وقد وردت سيرة هذا الباي في العديد من المصادر أبرزها كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثعر ألوهراني لابن سحنون الراشدي ، وهذا الكتاب عبارة عن قصيدة مطولة تمدح خصال الباي وتثني عليه بعد فتحه لمدينة وهران ، والجدير بالذكر ان الكاتب كان من الأشخاص المقربين جدا من الباي ومن خاصته وعلى دراية تامة بسياسته وتوجهاته،كما كان من بين أفراد الحملة على الأسبان ، إضافة الى كتاب "رحلة محمد الكبير للجنوب الصحراوي الجزائري"،لأحمد بن محمد بن هطال التلمساني ، والذي كان الكاتب الخاص والشخصي للباي ملما بكل التفاصيل والأسرار .

وخلاصة القول أن الباي محمد بن عثمان الكبير نجح في سياسته على مختلف الأصعدة في إدارة بايلك الغرب – على الرغم من اتساعه – بحكمة وحنكة نادرة قلما تتوفر في عدد كبير من الحكام العثمانيين الذين تداولوا على حكم بلاد الجزائر منذ مطلع القرن 16م أي منذ 1518 م الى مطلع القرن 19م ، عند سقوط مدينة معسكر في 06 ديسمبر 1935 ونهاية الحكم العثماني بالجزائر وهذا نظرا للعديد من الخصال الحميدة التي تميز بها والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

-1- حسن معاملته للرعية أكسبه ثقة السكان على اختلاف مشاربهم ، مما أدى بهم إلى إبداء فروض الولاء والطاعة له .

-2- الورع والتقوى أللتين تمتع بهما واهتمامه الكبير ببناء المدارس والمعاهد والزوايا وتبجيله لحملة العلم وحفظة القران الكريم ، نظرا لمكانتهم الرفيعة بين الأهالي ،أكسبته احتراما كبيرا من طرف السكان خاصة اذا علمنا ان البعد الروحي لدى الجزائريين يأتي على رأس اهتماماتهم المختلفة .

-3- قرب الباي من الرعية من خلال الاهتمام بانشغالاتهم ومشاكلهم اليومية ، تواضعه مع مختلف طبقات المجتمع ، زادت من ثقتهم به .

-4- كرم الباي المتزايد في الإنفاق على مجالات وسبل الخير، أبدت وأظهرت زهده وتعففه في البحث و الحرص على المناصب الرفيعة .

-5- حرصه الشديد في محاربة العدو الاسباني ،أظهرا خلاص هذا الباي في استرجاع كل شبر محتل الى الوطن الأم "بلاد الجزائر " .

-6- العمل على إخماد الفتن وبؤر التمرد والعصيان ضد سيادة الدولة خاصة في الجنوب الجزائري ، وتأديب القبائل الرافضة لمنح الضرائب والزكاة لبيت المال، اكشف عن نية صادقة على التفاني في خدمة هذه البلاد وأهلها

-7- التسامح والمرونة في المعتقد من خلال وجود المذهب الرسمي للدولة، ممثلا في المذهب الحنفي والقاضي الحنفي ، والمذهب المالكي للسكان والإفتاء به أيضا، أظهر معاملة حسنة للرعية وتقدير كبير لها .

-8- تجلي العامل الديني والبعد الروحي من خلال قدوته بالرسول عليه الصلاة والسلام بمبادرته في بناء المسجد ،بعد هجرته من مكة الى المدينة ، حيث كان اول ما قام به الباي محمد بن عثمان الكبير هو بناء المسجد شكرا لله على نعمة فتح مدينة وهران .

المصادر والمراجع

1- ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ..... تحقيق محمد بن عبد الكريم ، مطبعة البعث قسنطية 1973.

2- الجامعي ابو زيد عبد الرحمن :فتح مدينة وهران،تحقيق الدكتور مختار حساني مخبر المخطوطات ،جامعة الجزائر 2003.

3- حمدان بن عثمان خوجة :المرآ ة ،لمحة تاريخية واحصائية على ايالة الجزائر تعريب وتقديم وتحقيق العربي الزبيري ،ش.و.ن.ت.الجزائر ،1982.

4- احمد الشريف الزهار :مذكرات نقيب اشراف الجزائر ،1754-1830 تقديم وتحقيق احمد توفيق المدني ، الشركة الطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974.

5- أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979 .

6- يحي بوعزيز ، المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد 1798/1780 ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993 .